الفصل الرابع

(الرؤية الواحدية للتاريخ)

تمهيـــد:

«الموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة في حياتنا. فإذا كان الماضي عبارة عن أي شيء ينقضي، سيكون هناك شيء مؤكد عن الحضارة، الثقافة أو الإمبراطورية وهو انتهائها. انقراض الأنواع هو الشيء المؤكد عنهم. إن كان هناك إيمان بالقانون الثاني للديناميكا الحرارية، سيكون هناك شيء مؤكد عن أي نظام وهو تدهور وانهياره في النهاية وتحوله إلى حالة من الفوضى والتفكك. نعرف هذه الأشياء جيدًا، ونعرف أن كثيرا من نشاطنا ببساطة عبارة عن محاولة للهروب من التسليم بذلك؛ نعرف جيدًا أن المستقبل يحمل لنا ظهورا بطيئًا للمرض المزمن، الألم والضعف. فبالنسبة لمن يتيح الفرص للحنين للوقت الضائع، قد تكون الفكرة غير محتملة وكريهة. يمكننا التفكير في بعض الأعمال الفنية الرائعة خلال حقبتنا الزمنية ذات المشهد الأخير المرعب الذي يصور تأثير السن والزمن على الشباب والجمال. ما هو إلى انقضاء لليوم الذي نحن فيه. ربما يكون رد فعل لقدرنا، ربما يكون رد الفعل الوحيد لما هو راسخ ولكنها عبارة عن تفاؤل قائم على تشاؤم، ابتهاج يوجد فقط عند مواجهة الرعب الذي نعرف أنه قادم غدًا»[1].

إن هذا الفصل يدور حول فهم التاريخ، عن رؤيتنا للتاريخ، وما يمكن أن تكون قد أحرزته هذه الرؤية من نجاحات في تحقيق التطور والتقدم. وسوف نبدأ هذا الفصل بطرح مجموعة من التساؤلات المهمة التي سيتطرق الباحث للإجابة عليها داخل الفصل.

- هل التاريخ يسير في اتجاه واحد؟
- هل للتاريخ بداية محددة ونهاية محتومة؟
- هل هناك قوانين محددة لهذا التاريخ تجعله يسير في هذا الاتجاه؟
- هل ليس لنا حل إلا أن نستسلم للأحداث من حولنا وأن نؤدي أدوار رسمت لنا سلفاً؟
- هل قدر الحضارة والثقافة والإمبراطورية هو انتهائها؟
- وهل انقراض الأنواع أمر حتمي؟
- وهل الشيء المؤكد عن أي نظام هو تدهوره وانهياره وفي النهاية تحوله إلى حالة من الفوضى والتفكك؟

---

(1) See O'Hear, Anthony, After Progress

هذا ما سيحاول الباحث مناقشته داخل الفصل، متناول رأي الفيلسوف، رؤيته لسير التاريخ والاعتراضات التي يمكن أن يكون قد قدمها.

١- التاريخ «الهويجي»:

يبدأ "أو›هير" بالقول بأنه مهما كانت جذوره، ما أطلق عليه تقدمية التنوير، وما أشار إليه الآخرون بإسم الرؤية الهويجية* للتاريخ يكون ويبقى دائمًا جزء من صورتنا الذاتية، على الرغم من تقلبات القرن العشرين هذه الرؤية تتألف من عنصرين، أولاً: أن التاريخ يتحرك في اتجاه معرفة وعلم أكبر وأعظم، مرتبطًا أيضًا بمزيد من العقلانية، بمزيد من التنظيم الاجتماعي الشامل والأكثر مساواة، كما أنه يتألف من صور من التقدم المادي، ثانياً: أن هذا الرؤية مستحبة، لأنها تتضمن أننا، في الديمقراطية الغربية في نهاية القرن العشرين سنحتل قمة التاريخ، تلك الفكرة التي كانت تنزع إليها سائر الفترات والأحقاب الأخرى، ولكنها فشلت جميعًا على تحقيقها كلًا على طريقته، وهذا هو الذي يجعلنا نتمسك بهذه الفكرة إلى حد ما وبلا أي الشك[١].

وفي مقال ل "أنطوني أو›هير" بعنوان "التاريخانية والمعرفة المعمارية Histori-cism and architectural knowledge" (وهو مذهب يؤكد أن التاريخ يتحدد بقوانين ثابتة)، يعرف "أو›هير" التاريخانية فيقول: "هي أي تطبيق للأمور البشرية التي تفترض أولًا أن هناك مسار لا مفر منه للتاريخ البشري، ثم تستمر في الإصرار على أن الفرد يجب ببساطة أن يقدم نفسه لذلك المسار[٢].

ويتضح في هذا التعريف أنه يحتوي على الجزأين والتي تتكون منهم وجهت النظر الهويجية للتاريخ، ما تحتاج إليه الآن هو مناقشة العنصر الأول للرأي الهويجي والقائل بأن التاريخ يتحرك في اتجاه معروف ومحدد، يقول "أو›هير" عن ذلك:

هذا المبدأ غير إنساني وجدير بالتصديق بصورة كبيرة. في الحال جدير بالتصديق، لأنه من وجهة نظرنا كل شيء حدث قد ساهم فيما نحن فيه الآن حقا، يمثل تلك الحقيقة البديهية فإذا كان الماضي مختلف، فلن نكون أينما نحن الآن ربما تزايدت اختلافات بسيطة في الماضي لخلق اختلافات كبيرة بالسنوات التالية، ووفقًا للعلوم الطبيعة نحن

(١) إن مصطلح الهويجية يعود إلى الحزب الهويجي (حزب سياسي)، وهو ما سمي بالحزب اليميني أو حزب الأحرار، و يطلق عليه اليوم أسم الحزب الجمهوري،وهو الحزب المناهض للحزب الديمقراطي.

(2) O'Hear,Anthony , After Progress, p.94

(3) O›Hear, Anthony ,Historicism and architectural knowledge, philosophy, vol.68, No.264, .Cambridge University press,(1993), p.128

معتادين على الادعاء بأن الاختلافات البسيطة في أول نانو ثانية للكون ستخلق عالم مختلف جدًا من العالم الذي نقطنه، وفيه مخلوقات مثلنا لن تتطور[١].

ويوضح "أو'هير" أن هناك سبب جيد للتعامل مع التاريخ البشري والإبداع البشري من حيث التطور، حيث أنه يحتوي على أحداث بالصدفة وقفزات للتخيل، فإن كل منها يأخذنا وراء ما يكون في أي وقت في طرق ووسائل تعتبر غير متوقعة بصورة تأسيسية. بالفعل، حتى الكلام عن التاريخ هو للتأكيد على أنه في النهاية يكون الأمر غير متوقعًا وليس له اتجاه محدد أو توجيه معروف سبق داخله. أي عملية تطورية تشمل القفزات العشوائية وراء ما هو موجود بالفعل، والتي تجتثها أو تقويها البيئة بعد ذلك إن الأمر لهذا يمكن أن نراه من حيث هدف ما أو عملية موجهة بالمشكلة. ولكن لرؤيته بهذه الطريقة لا ينبغي أن يعمينا عن الدرجة التي عندها تغذى العشوائية العملية ككل. بل وأكثر من هذا فإن الاختلافات الصغيرة نوعًا ما وغير الهامة بصورة واضحة في الظروف المحيطة التي تعطينا تحولات عشوائية، وتسمح للبعض داخليًا بالازدهار ولآخرين بالكبت قبل أن يكون لديهم الفرصة لإظهار همتهم، يمكن أن تؤثر على الطريقة التي يكون عن طريقها خط تطوري واحد مهيمنًا على آخر. إن الاختلافات الصغيرة نوعًا ما في الظروف يمكن بعدئذ أن تحدد ما إذا كنا سنرى لحظة معينة في المستقبل حاسمه في التاريخ التطوري أم لا[٢].

إن كان أنف كيلوباترا مختلف إلى حد ما، لم يقع أنطونيو في حبها ولم تظهر الإمبراطورية الرومانية ربما كما يشير تولستوي في "الحرب والسلامWar and Peace" قدر الحروب يعتمد على التصرفات القليلة للجنود التافهين. إذا لم يصاب نابليون ببرد في معركة (واترلو)Waterloo لكسب الفرنسيون المعركة، ربما يكون تعرف جبان من جندي فرنسي غير معروف قد حدد مصير المعركة برمتها[٣].

إن المذهب التاريخي يؤكد على أن الفكر الإنساني والفعل يعتمدان أساسًا على موافق تاريخية تبرهن نتيجتها على أنها لا تمتلك هدفًا عقليًا أو معنى. ويزعم المذهب النسبي Relativism أن كل صنوف المطلق الظاهرية ليست إلا مثلًا عُليا لها صلة[٤].

يقول «بوبر» في مقدمة (فقرة التاريخية) أن التاريخانية التي ينتقدها هي أي تطبيق

---

(1) O'Hear, Anthony , Historicism and architectural knowledge, p.94
(2) Ibid, p.130
(3) O'Hear,Anthony, After Progress, p.95
(٤) جميل أبو العباس زكير بكري: فلسفة السياسة عند ليو شتراوس، ص١٢٨.

منهجي للعلوم الاجتماعية (بما فيها التاريخ) والتي تفترض أن التنبؤ التاريخي هو هدفها الرئيسي والتي تفترض أن هذا الهدف يمكن بلوغه عن طريق اكتشاف إيقاعات أو أنماط أو قوانين أو اتجاهات تكمن وراء تطور التاريخ بالرغم من أن إصدارات الفكر التاريخي التي نألفها كثيرًا بالممارسة تكون هي التي ترى تطور التاريخ كتقدم لحالة ما مستقبلية مثالية، وسيكون من الواضح، في إحساس «بوبر»، أن «شبنجلر» يعتبر تأريخًا فقط بقدر «ماركس» و«لينين»[1].

عند "أو'هير" أي شيء من المذهب البديهي إن أشار إلى أن الحاضر عبارة عن عدد كبير من الأسباب الماضية، فإن أي سبب بسيط قد يكون كاف لتغيير الحاضر. بالتأكيد الماضي لم يكن معد أو مخصص لخلق المستقبل وفي الحقيقة التأثيرات المحتملة للمصادفات البسيطة ليست عادة ما يبنون عليه المؤرخين الهويجين رأيهم التقدمي عمومًا، يريدون لعب دور التفاصيل العشوائية كأنف كليوباترا أو نزلة نابليون ما يدعونه هو أن أسفل الدوامات التيار المعاكس، الظواهر السطحية والأحداث الغريبة الغير متوقعة للتاريخ، هناك تيارًا أعمق لا يقاوم يتحرك للأمام وسيتفق مهما كانت الأحداث الفردية، شيء يشبه خطوة الشخص الطويلة ولكن مع تقدم ثابت للعلم، وهو الليبرالية والديمقراطية وعادة ما تدعم هذه الآراء الافتراض الشبه ماركسي بأن الإنجازات التكنولوجية والعلمية وتأثيراتهم الاقتصادية حتمًا تسير في اتجاه محدد وتحدث هذه التأثيرات والتطورات تغيراتهم الثقافية السياسية والاجتماعية[2].

النقطة الأولى عند "أو'هير" التي قدمها هو أن العالم الحديث بالطبع يتسم بظهور العلم والديمقراطية أحد الأفكار الرئيسية هو رسم جوانب هذا التطور ولكن لابد أن يسأل الشخص هل هذا التطور حتمي أم مقصود، هل كان لابد أن يحدث كما تم، أيضًا هل العصور والثقافات الأخرى سترى الأشياء من نفس وجهة النظر، علاوة على وجهة النظر الجماعية هذه، قد نتساءل هل من الضروري أن تستمر الأشياء بنفس الطريقة ومن أي منظور تاريخي عالمي يمكننا الحديث عن نزعة تتلاشى بعد بضعة قرون، مع ذلك من الممكن أن يتباطأ ارتقاء العلم بصورة مختلفة[3].

وهنا يجب إيضاح أن التاريخانية هي حركة معقدة شهدها الفكر الحديث وتمثلت

(1) O'Hear, Anthony , Historicism and architectural knowledge, p.128
(2) O'Hear, Anthony, After Progress, p.95
(3) Ibid, p.96

أوضح ما تكون في أفكار "هيجل" و"نيتشه" و"هايدجر"، ويلاحظ أنه يميز داخل هذه الحلقة المركبة بين نمطين أساسيين؛ أولهما: هو ما يطلق عليه التاريخانية النظرية Theoretical Historicism أو التاريخانية التأملية، وقد ظهر هذا النمط مع الموجة الثانية من موجات الحداثة ويتمثل في أعمال هيجل، وطبقًا للتاريخانية التأملية فإن العلم تتمثل مهمته في تأمل الحركة التاريخانية التي ما هي في جوهرها إلا تطور عقلي، وهكذا نجد أن "هيجل" يجعل من فلسفة التاريخ بديلًا لفلسفة السياسة بمعناها السقراطي، فالفلسفة السياسية في تصوره لا ينبغي أن تعني بما يجب أن تكون عليه الدولة ولكنها ينبغي أن تقصر اهتمامها على استكشاف ما هو متحقق فعلًا في لحظة تاريخية معينة، ومن ثم ومن خلال هذا المفهوم الهيجيلي نجد أن الفلسفة السياسية الكلاسيكية تفقد مبرر وجودها. أما النمط الأخر من أنماط التأريخية فهو ما يطلق عليه التاريخانية الوجوديةExistence Historicism أو التاريخانية الراديكالية، وقد ظهر هذا الاتجاه مع الموجة الثالثة من موجات الحداثة ويعتبر "نيتشه" رائده الروحي، كما يعد "هيدجر" أبرز المدافعين عنها في القرن العشرين، وتتفق التاريخانية الراديكالية مع "هيجل" في أن الإنسان لا يمكن فهمه إلا في ضوء التاريخ، ولكنها تختلف معه في أن التاريخ ليس تطورًا عقليًا، بل إنه لا يمثل تطورًا صاعدًا بالضرورة، وفي رأي هذا الاتجاه أن الإنسان ليس بوسعه أن يتجاوز حركة التاريخ ولا يستوعبها، ذلك أن سائر التفسيرات المختلفة للتاريخ تتلون دائمًا بمنظور الحاضر العابر المؤقت الذي نمت فيه ولا يمكن أن تنفصل عنه[1].

إن مبادئ التاريخ الهويجي تتفق مع مبادئ الفيزياء الكلاسيكية التي تقول بمبدأ الحتمية فبمقتضى الفيزياء الكلاسيكية يمكن معرفة النتائج إذا كانت مقدماتها معروفة وكان العالم الفرنسي الكبير الماركيز دي لابلاس (١٧٤٩-١٨٢٧م) خير من عبر عن مبدأ الحتمية ومبدأ السببية (العلة والمعلول) في قوله:

«إن الحالة الراهنة لنظام الطبيعة هي بلا شك نتيجة لما كانت عليه في اللحظة السابقة، وإذا كنا نتمتع بذكاء يتيح لنا أن ندرك في لحظة ما كل علاقات الكينونات في الكون، فإن بالوسع تحديد مواضع، وحركات وآثار جميع هذه الكينونات في أي وقت في الماضي والمستقبل[2].

(١) جميل أبو العباس زكير بكري: فلسفة السياسة عند ليو شتراوس، ص١٢٧.

(٢) علي الشوك: الثورة العلمية الحديثة وما بعدها، ص١٢٧.

عند "أوهير" من الممكن أن يثبت نجاح التقدم العلمي تعطله وتعطلنا علاوة على ذلك، حتى في جوهره النظري، ليس واضح أن العلم في تقدم وتطور، التضاد عليه في النظريات الموحدة الواسعة والتي ترتبط نظرية الكم بالنسبة قد أثبتت أنها حادثة قبل الأوان ويبدو أن الغاز ومتناقصات نظرية الكم المتعددة ليست أقرب إلى الحل مثلما كانت عام ١٩٢٠م عندما ظهرت لأول مرة[١].

ترى ميكانيكا الكم العالم مكونًا من أشياء ليست محدودة مع إمكانية التصرف كأمواج في بعض الأحيان وكجسيمات في حالات أخرى. . . وأن الوجود وفي التعبير عن نفسه كجسيم، له موضع، ولن يكون بوسعنا معرفة موضع وزخم هذا الكيان في آن واحد، وهذا ما عرف بقانون هايزنبرغ* في اللاحتمية[٢].

لقد طرحت ميكانيكا الكم التفسير اللاحتمي، والاحتمالي، والإحصائي كمعالم أساسية للظواهر الفيزيائية طبعًا في عالم الذرة. وأبسط مثال على التفسير في ميكانيكا الكم هو تعذر معرفة موضع وسرعة الإلكترون في آن واحد[٣].

وهنا يوضح "أوهير" أن لدينا احتمالية مزعجة، بمعنى أننا قد توصلنا لهدف العلم ولكن بصورة غير مؤكدة، عام ١٩٢٨م، قد تنبأ الفيزيائي الشهير ماكس بورن* أن علم الفيزياء كما نعرف سينتهي خلال ستة شهور وهذا الآن "بورن" قد تصور أنه هناك جسمين أوليين، الإلكترون والبروتون، وقد تم اكتشاف المعادلة التي تتحكم في الإلكترون (وفي هذا الوقت لم يسمع أحد عن النيوترون، وترك وحيدًا في جسيمات مضادة)[٤].

---

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.96

(*) قانون هيزنبرغ(أو مبدأ الربية) من أهم المبادئ في نظرية الكم بعد أن صاغة العالم الألماني هايزنبرغ ١٩٢٧م وينص هذا المبدأ على أنه لا يمكن تحديد خاصيتين مقاستين من خواص جملة كمومية إلا ضمن حدود معينة من الدقة، أي أن تحديد أحد الخاصيتين بدقة متناهية يستتبع عدم تأكيد كبير في قياس الخاصية الأخرى ، ويشيع تطبيق هذا المبدأ بكثرة على خاصيتي تحديد الموضع والسرعة لجسيم أولي؛ هذا المبدأ معناه أن الإنسان غير قادر على معرفة شيء بدقة ١٠٠٪. ولا يمكنه قياس كل شيء بدقة ١٠٠٪، إنما هناك قدر لا يعرفه ولا يستطيع قياسه. علي الشوك: الثورة العلمية الحديثة وما بعدها، ص ١٢٣.

(٢) علي الشوك: الثورة العلمية الحديثة وما بعدها، ص١٢٣.

(٣) نفسه . ص١٢٨.

(*) ماكس بورن: عالم رياضيات وفيزيائي ألماني، حصل على جائزة نوبل ١٩٥٤م بفضل بحوثه الأساسية عن ميكانيكا الكم؛ ما بين عام ١٩٢٥و١٩٢٦م قام بنشر دراسات حول مبادئ ميكانيكا الكم (ميكانيكا المصفوفات) بالتعاون مع كل من هايزنبرغ وجوردان. وهو أحد صياغات ميكانيكا الكم الأولى التي حاولوا عن طريقها تفسير خطوط طيف ذرة الهيدروجين والذرات المتشابهة. وبعد فترة وجيزة قام بنشر دراسته الخاصة حول هذا التفسير الإحصائي لميكانيكا الكم.

(4) O'Hear, Anthony, After Progress, P.97

ويكمل "أوهير" أنت بينما كان بورن يتنبأ بهدف علم الفيزياء، كانت هناك أفكار أكثر إزعاجًا تراود الفيزيائي الشهير نيلزبور Niles Bohr (١٨٨٥- ١٩٦٢م)* فقد كان عالم الكم غير جيدًا وصعب فهمه من منظور العبارات الخاصة بالإنسان (الجسيمات التي تقفز من حالة أو وضع لآخر بدون المرور بالمراحل الوسطى، جسيمات ذات وضع، ولكن بدون قوة دفع، أجسام كانت عبارة عن جسيمات خلال لحظة واحدة ثم تحولت إلى أمواج في اللحظة التالية)[١].

إن العالم، من منظور الميكانيكا الكلاسيكية، ملئ بجسيمات ذات مواضع وسرعات محددة، ولكن لا يمكن الحصول على أي معلومات عنها وهذا الأسلوب في طرح المسألة، والذي تلعب فيه حالات الجسيمات دور «الشيء في ذاته» في الفلسفة المثالية، يؤدي إلى مشكلات كاذبة لا حصر لها، فهو يقدم أشياء فيزيائية، أي جسيمات ذات مواضع وسرعات محددة، لا تذكر عنها القوانين الفيزيائية لميكانيكا الكم شيئًا البتة هذه الأشياء أو الأجسام تلعب دورًا متشابهًا لدور نظام الإسناد الساكن سكونًا مطلقًا، والذي يرغب البعض إضافاته لنظرية النسبية ولكنه لا يتحقق أبدًا في أي قضية فيزيائية وفي كلتا الحالتين يعزى سبب هذه الإضافة المنشودة إلى ما حظيت به هذه التعبيرات من فائدة في سابق عهد الفيزياء، وجعلت منها فلسفة المدارس مكونات لـ «العالم الحقيقي» مما يستوجب إذن الاحتفاظ بها إلى الأبد[٢].

وهنا يتساءل فيلسوفنا هل إذا لم نتوصل إلى هذا المستوى من الصغر، سنتوصل لحدود فهم الإنسان؟ هل الفهم مقتصر على افتراضات الفطرة بالنسبة للفيزياء الكلاسيكية، افتراضات تظهر نظرية الكم أنها لم تفهم في المستوى الذري الفرعي؟ هل عالم الكم سيكون غامضة بالنسبة لنا إلى الأبد على الرغم من نجاحنا الفائق في التنبؤ بنتائج عملياته؟ حقًا إن النجاح المتوقع جدًا للنظريات الغامضة بالنسبة لنا على الرغم من كل شيء يؤيد وجهة نظر "بور" على الرغم أننا في عام ١٩٩٩م يمكننا قياس ومعالجة نتائج الأحداث الكمية بعشرة أماكن عشرية، إلا أننا لا نقترب فعلًا من فهم ما يحدث بداخل

(*) نيلز بور: (١٨٨٥-١٩٦٢م)، فيزيائي دانماركي كان مسيحيًا ثم أصبح ملحدًا ولد في كوبنهاغن، أسهم بشكل بارز في صياغة نماذج لفهم البنية الذرية، إضافة إلى ميكانيكا الكم، وخصوصًا تفسيره الذي ينادي بقبول الطبيعة الاحتمالية التي يطرحها ميكانيكا الكم.

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, P.97.

(٢) فيليب فرانك: بين الفيزياء والفلسفة، ترجمة: وهمة العبد، مراجعة: السيد عطا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠١٠، ص١١.

الجسيمات الأولية إن كانت فعلًا جسيمات أكثر مما كان بالنسبة ل "بور" و "هايزنبرغ" عام ١٩٢٠م. وبهذا المعنى، إذا توصلنا لهدف العلم، نحتاج أن نعيد التفكير جذريًا في أفكارنا وتصوراتنا بالنسبة للتقدم العلمي[١].

إن ميكانيكا الكم رغم الثورة التكنولوجية المذهلة، أحدث بلبلة لم يسبق لها مثيل على الصعيدين العلمي والفلسفي، وكان نذير بعصر الشك و اللايقين، فهذه النظرية عطلت فيزياء نيوتن الكلاسيكية، وأحدثت صدمة في الساحة العلمية، ببدائلها المتمثلة بالاحتمية، والاحتمالية، والتفسير الإحصائي، وطعنت بمبدأ السببية (أي العلة والمعلول)، وحتى بالمقولة الحتمية لميكانيكا الكم لما قبل عام ١٩٢٥م وللعلم بصورة عامة وأهم من ذلك أنها جعلت الواقعية، القائلة بأن الطبيعية لها كيان موضوعي مستقبل عن الوعي البشري، موضع التساؤل[٢].

مايجب الحديث عنه هنا هو فكرة الفلسفة أو العلم التي بدأت تتغير في القرن السابع العشر حيث بدأت تظهر فلسفة جديدة وعلم جديد فقد ناديا أو صنعا الادعاءات نفسها التي فعلها كلًا من الفلسفة والعلم السابقين ولكن نتيجة أن ثورة القرن السابع عشر العلمية أنتجت شيئًا لم يكن موجودًا من قبل وهو ظهور العلم مع رأس المال. وقد كانت المحاولة في الأصل هي أن تحل الفلسفة الجديدة والعلم الجديد محل الفلسفة التقليدية والعلم التقليدي، وفي أثناء بضعة أجيال ظهر جزءًا فقط من الفلسفة الجديدة والعلم الجديد أو الفلسفة الجديدة كان ناجحًا فقط، ومن ثم فقد ظهر التمييز العظيم بين الفلسفة والعلم الذي كنا نؤلف بينهما، وجاء إلى الوجود فالعلم هو الجزء الناجح من الفلسفة أو العلم الحديث، والفلسفة هي الجزء القليل غير الناجح. وبهذا يكون العلم أعلى قيمة من الفلسفة ونتيجة لذلك حدث انخفاض في قيمة كل معرفة غير علمية من خلال هذا المعنى الغريب وأصبح العلم مهيمنًا على الفلسفة بطريقة مشابهة تمامًا للطريقة التي كان فيها اللاهوت مسيطرًا على الفلسفة في العصور الوسطى. فالعلم هو كمال فهم الإنسان الطبيعي للعالم. وعلى الرغم من ذلك إلا أن بعض الأشياء قد اتخذت مكانًا مختلفًا في القرن التاسع عشر فعلى سبيل المثال فإن اكتشاف عدم اقليدية الهندسة واستخدامها في الفيزياء التي أوضحت أن العلم لا يمكن وصفة بشكل كاف على أنه فهم الإنسان الطبيعي للعالم الكامل، بل بوصفه التغيير الجذري لفهم الإنسان الطبيعي للعالم.

(1) O'Hear, Anthony, After progress, P.98

(٢) فيليب فرانك: بين الفيزياء والفلسفة، ترجمة: وهمة العبد، ص ١٢٤.

بعبارة أخرى، فإن العلم يقوم على فروض أساسية معينة وهذه الفروض ليست ضرورية بشكل مطلق والتي تبقى دائمًا افتراضية. وكانت النتيجة ترسم مرة أخرى بشكل أكثر وضوحًا من قبل نيتشه، فالعلم ليس سوى تفسير واحد للعالم من بين كثيرين. يمتلك بعض المزايا، ولكن هذا لا يعطيه أي وضع معرفي مرموق في النهاية. إنه بعبارة أخرى، مع المكانة الهائلة للعلم التي هي أعلى من أي قوة أخرى في العالم الحديث، إلا أنه يكون كعملاق ذي أقدام من صلصال إذا كنت تنظر إلى أساسيته[1].

ولقد وضع «فيليب فرانك» هنا مسألة مهمة عن «التتام كحجة للمذهب الحيوي والقُدَرية» يقول فيها أنه تتيسر رؤية ما يمكن الحصول عليه لفهم القدرية من المماثلة بنظرية الكم، وحتى قبل اكتشاف «بور» للتتام قدم «بلانك» الحجة التالية عن توافق القدرية مع السببية الفيزيائية إذا أستطاع الإنسان حساب أعماله المستقبلية مقدمًا من مجموعة الصفات الفيزيائية الحالية، فمن شأن هذه المعرفة أن تؤثر على حالته الراهنة، مثلًا على جزيئات مخه، ومن ثم تغير حالته، لذا لا يكون هناك قدرة على التنبؤ بالمستقبل، وبالتالي لا يمكن للُقَدرية أن تتعارض مع السببية الفيزيائية لما يحدث في جسم الإنسان.

ويترتب على ذلك فقط أن الإنسان لا يستطيع حساب أعماله في المستقبل من نتائج الملاحظات الذاتية، ومع ذلك قد يمكنه حساب أعمال غيره في المستقبل، وحتى من مجرد مشاهدات فيزيائية بحته[2].

السؤال الذي يفرض نفسه: ما هي طبيعة التقدم العلمي؟ بأي منوال يسير ويتواتر؟ وكيف يمكن تفسيره؟ في الإجابة على هذا يعطينا بوليكاروف أربعة آراء تجمل ردود فلاسفة العلم، وهي:

(أ) تتعاقب الأحداث بغير اطراد عام، وبالتالي لا يمكن تفسير طبيعة التقدم العلمي، يمكن فقط رصده ووصفه، وهذا تصور نفر من الوضعيين المنطقيين المتطرفين، وهو تصور سلبي بمثابة امتناع عن التصويت وعن وضع فلسفة للتقدم العلمي.

(ب) تقدم العلم يتم كسلسلة من التحولات أو الثورات، التي تحدث أحيانًا بغير رابطة داخلية، وعبر انفصالات جذرية وقطائع في صيرورة التقدم العلمي. وهذه هي النظرة الثورية الأحدث التي توصف بأنها راديكالية.

(ج) وكنقيض للرأي السابق نجد الرأي (التراكمي) الذي يؤكد على استمرارية

(١) جميل أبو العباس زكير بكري: فلسفة السياسة عند ليو شتراوس، ص١٤٣.

(٢) فيليب فرانك: بين الفيزياء والفلسفة، ترجمة: وهمة العبد، ص١١٤.

المعرفة العلمية وأنها خط صاعد متصل يمثل تقدمها اتصالًا متناميًا. وهذا هو رأي الاستقرائيين جميعًا ومؤرخي العلم الكلاسيكيين أمثال جورج سارتون وكارل بيرسون، أخذ به أيضًا ارنست ماخ وبيير دوهيم.

وجملة القول إننا إزاء نظريتين لطبيعة التقدم العلمي. الأولي هي النظرة التراكمية الاتصالية وهي الشديدة الاتساق مع العلم الكلاسيكي النيوتوني، والثانية هي النظرة الثورية الانفصالية المتسقة مع تقدم العلم في القرن العشرين- بعد ثورة النسبية والكوانتم. على أن ثمة نظرة رابعة آتية تحاول الجمع بينهما، وهي:

(د) التصور الجدلى (الديالكتيكي) لهيجل وماركس وإنجلز وأشياعهم. وتبعًا له يؤدي التقدم الكمي التدريجي أي (التراكمي) إلى قفزات كيفية أو (ثورية) تصبح بدورها نقطة البدء لتراكم كمي جديد، يؤدي عند نقطة معينة إلى قفزة كيفية[١].

يقدم «بوبر» في النقاش التالي فيقول «إن منهج ومسار التاريخ البشري يتأثر بشدة بنمو المعرفة البشرية لا يمكننا عن طريق الطرق العقلانية أو العلمية توقع ما سيكون عليه هذا النمو. (ولو أمكننا ذلك، فعندها سنتمكن الآن من معرفة مالم نعرفه من قبل، ربما مدى أمان لتصرف في الفاقد النووي أو كيفية كتابة برنامج لترجمة حلقات حديث طبيعي مكتوب باللغة الإنجليزية إلى اللغة الفرنسية). ولهذا، فنحن لا يمكننا التنبؤ بالمسار المستقبلي للتاريخ البشري أو توقعه»[٢].

ويوضح "أو'هير" هنا أن النقاش يقترح بصورة مقنعة وكافية أنه لن يكون لدينا القدرة على التنبؤ بحالات المعرفة المستقبلية، وهذا وحده ينبغي أن يجعلنا قلقين من ذرائع (ماركس، أو شبنجلر أو بيفستر) أو أي فرد آخر من أجل تكوين نبوءات تاريخية أو تحديد روح عصرنا في ضوء معرفتهم المفترضة للاتجاهات الكامنة في التنمية التاريخية، حيث أن ما سيسمى روح عصر معين يكون دائمًا عرضه للتبدل وراء التخيل أو التنبؤ الحالي عن طريق اكتشاف ما جديد أو تطبيق تقنية جديدة، كما يتضح في مثال الكومبيوتر الصغير في حياتنا الخاصة[٣].

---

(١) يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين(الأصول- الحصاد، الآفاق المستقبلية)،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩، ص ص ٤٢٨، ٤٢٩.

(2) O'Hear, Anthony,Historicism and architectural knowledge, p.129

(3) Ibid, P.129

فرانسس فوكاياما :

نحن نقف على أعتاب حقبة مهمة، حقبة اختمار، فعندما تنطلق الروح طفرة واحدة إلى الأمام، تعلو فوق صورتها السابقة، وتتجلى في صورة جديدة إن كل تصوراتنا ومفاهيمنا وقيودنا التي تحكم رباط عالمنا آخذه في التحليل، تتبدد مثل رؤى الأحلام، وها هو ذا طور جديد من أطوار الروح في سبيله إلى التكوين وأحرى بالفلسفة، قبل سواها، أن تختص بظهوره وتقر به بينما الآخرون المعارضون له عن عجز ووهن يتشبثون بأهداف الماضي».

ج. ف. ف. هيجل: من محاضرة ألقاها في ١٨ سبتمبر ١٨٠٦[١].

لقد قدم "فوكاياما" هذه الفقرة في كتابة "نهاية التاريخ" في فصل بعنوان "الثورة الليبرالية على النطاق العالمي" ويقول "أو هير" عن هذا الكتاب:

حتمًا إن التقدم التاريخي والاجتماعي مرتبط بصورة الذاتية وحتمية اتجاهه العام بعيد عن الشك في الحال بعد سقوط سور برلين، قد أنصب الحديث بأكلمه على رسالة "فرانسس فوكاياما" عن "نهاية التاريخ" وقد استمد هذا الرأي من وجهة نظر هيجل عن التاريخ وقد أوضع أن الديمقراطية الليبرالية سادت العالم الآن ولذلك قد تم التوصل إلى وجهة النظر النهائية عن التاريخ[٢].

ويكمل فيقول:

فقد كانت الليبرالية الديمقراطية مستقرة وسليمة، وكانت الحالة التي أرضت رغبات غالبية الناس بصورة يمنع وجود أي دافع لشيء آخر، فلن يكون هناك أي ثورات أو مطالبة بأي تغير جذري وعلاوة على ذلك، بحسب وجهة النظر هذه إلى أن التاريخ قد حرك التحرر الفردي من الجماعي[٣].

يتكلم "فوكاياما" عن معنى ضعف الدولة القوية، أن الكثير من الأنظمة الاستبدادية السابقة قد أفسحت الطريق الآن أمام الديمقراطية وأن دول "ما بعد الشمولية" أصبحت مجرد أنظمة استبدادية إن لم تصبح دولًا ديمقراطية فالاتحاد السوفيتي قد تنازل عن السلطة للجمهوريات المكونة له، رغم أن الرحيق لا تزال ديكتاتورية، فإن النظام فيها

---

(١) فرانسس فوكاياما: نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٣، ص٥١.

(283) O'Hear, Anthony, After Progress, P.98

(3) Ibid, P.98

قد فقد هيمنته على قطاعات اجتماعية مهمة ولم يعد لدى أي من هاتين الدولتين تلك الأيديولوجية المتماسكة التي وفرتها لها في وقت ما الماركسية اللينينية[١].

وإلى جانب أزمة الاستبداد السياسي، شهد المجال الاقتصادي ثورة أقل حدة وإن لم تكن أقل أهمية. فأما التطور الذي كان مظهر هذه الثورة وسببها في آن واحد، فهو النمو الاقتصادي المذهل لدول في شرقي آسيا منذ الحرب العالمية الثانية، ولم يقتصر هذا النجاح على دول بدأت عملية التحديث مبكرًا مثل اليابان، وإنما اتسع نظامه حتى شمل فيما بعد كل الدول الآسيوية المستعدة لتبنى مبادئ السوق والاندماج الكامل في النظام الاقتصادي الرأسمالي العالمي، وكان معنى نجاحها أن الدول الفقيرة التي لا تملك من المواد غير العمل الدائب لسكانها أن تستفيد من انفتاح النظام الاقتصادي الدولي وأن تخلق لنفسها قدرًا من الثروات الجديدة التي لم تكن لتحلم بها، وهو ما من شأنه أن يضيق الفجوة بسرعة بينها وبين الدول الكبرى الرأسمالية الأكثر رسوخًا في أوروبا وأمريكا الشمالية[٢].

قد تميزت تلك الصورة بعدة أشياء رائعة أولًا صورة "فوكاياما" عن المسيرة الطويلة لكل شخص قد كانت مختلفة عن الاشتراكية الماركسية في القرن العشرين بدلًا أن يتحرك التاريخ نحو الاشتراكية العالمية قد تحرك نحو ديمقراطية السوق الحر الليبرالية. عالم يتسم باحترام حريات الفرد، حقوقه وملكياته الخاصة، لذلك، تم رؤية "فوكاياما" ثأر بعد ريجن وبعد تاتشر لهيجل بالنسبة للماركسيين ولكن، حسمًا كلاهما اشتركا في الرأي القائل بأنه كان هناك نموذج حتمي وواضح للتاريخ، وهذه الاستثناءات لم تزيد عن كونها مقاطعات مؤقتة وغير مجدية[٣].

بالطبع لا يمكن ل "فوكاياما" والماركسية أن يكونوا على حق. وهذا يجعلنا نشك في نوع الفرض المقدم. و بالفعل عام ١٩٩٩م، يبدو أن عمل فوكاياما لعام ١٩٩٠م قد أصبح عتيق ومؤرخ. حيث لم تتفوق الرأسمالية والديمقراطية الليبرالية، وإن حدث ذلك سيكون الاختيار الخطأ للسوق والليبرالية. إن عام ١٩٩٩م، أقل استقرارًا من الناحية الاقتصادية، السياسية والاجتماعية. حتى الآن يظهر القبل ماركسيين مرة أخرى من بين العاملين بأشغال الخشب، والمرددين مرة أخرى احتجاجهم على الرأسمالية. ولم

(١) فرانسس فوكاياما: نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة: حسين أحمد أمين، ص٥٢.

(٢) نفسه، ص ص ٥٢، ٥٣.

(3) O'Hear, Anthony, After Progress, P.98

تنتصر الماركسية علميًا أو غير ذلك في هذا القرن. فلقد جعلنا زعماء المبدأين نرى أن أي شخص يقف في طريقهم، بعيدًا تمامًا عن عصرهم، لابد أن يقف بعيدًا (واحتمال أن يدفع جانباً)[1].

إن هدف أو›هير من الخوض في هذه النقطة هو الإفصاح عن أن الرؤية الهويجية جعلت من التقدم أمرًا بعيد المنال. فبالنظر للرؤية الهويجية للتاريخ نجدها تتنبأ بأن المجتمع الغربية في نهاية القرن العشرين سيحتل قمة التاريخ، وتحمل الوعود والضمان لذلك من خلال التاريخانية التي تأكد على أن هناك مسار لا مفر منه للتاريخ البشري، وأن هناك تيار أعمق لا يقاوم يتحرك للأمام، ويأخذ البشرية كلها في رحابه، وسيتفق مهما كانت الأحداث، ويتخذون من التفاصيل العشوائية سبيلًا وبرهانًا لهم، كأنف كيلوبترا و دورها في انهيار الحضارة الرومانية.

ومهما تعددت الأمثلة التاريخية مثل "فوكاياما" و"الماركسيين" إلا أن رؤيتهم النهائية هي أن هناك نموذج حتمي وواضح للتاريخ، لا يمكن الفرار منه.

ما يريد "أو›هير" قوله هنا هو أننا باتباعنا مسار التاريخ ومكانيكا الكم، والتي أحدثت بلبلة على الصعيدين العلمي والفلسفي ببدائلها اللاحتمية والاحتمالية، فأصبحنا الآن نحيا في عصر من الشك واللايقين، ويمكن أن نكون أكثر دقة ونقول، أننا أصبحنا الآن نشك في تقدمنا. فيبدو- على حد قوله- أننا فقدنا القدرة على التنبوء بأي شكل من أشكال المعرفة المستقبلية.

٢-العودة إلى الوراء:

لا يمكن الرجوع بالزمن. مرة أخرى، الحقيقة البديهية تعني «المكتوب على الجبين مقدر»، أعني لا يمكن أن نقف في وجه القدر أو نتصدى له. ولكن هذا لا يتضمن أن التاريخ يسير في نظام أو اتجاه محدد، وهذا ما يرغب فهمه من يتحدثون بهذه الطريقة. هذا المفهوم خاطئ ببساطة، لا يمكننا السماح بإلغاء الماضي، بمعنى أن ما تم اكتشافه لا يمكن عدم اكتشافه. على سبيل المثال، لا يمكن أن ننسى أسرار الأسلحة الذرية، على الرغم أن العديد من العلماء سيفضلون أن ننسى. وعلى الرغم من ذلك، قد تضيع هذه المعرفة يومًا ما نتيجة لكوارث خفية. ولا يمكننا أن نوقف فعل أشياء تم القيام بها من قبل. على الرغم من أننا نرغب في فعل ذلك. ولكن لا يحدد ذلك مسبقًا ما سيحدث في

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.99

المستقبل، على الرغم أننا نشعر بأن الاختلافات والفروق تقف في وجهنا. إنها على صلة بروح الزمن، ولا شك لهم دور في صياغته ولن يقف شيء في طريقهم[١].

المشكلة هي أن خيالنا ضيق وذاكرتنا قصيرة. فنحن راضيين جدًا وسلبيين في وجه العالم كما يكون. ننظر لكل شيء من منظور الحاضر، كما لو كان الحاضر كل شيء موجود، وكما لو كان الماضي مجرد نسخة مكررة من الحاضر. حيث تظهر الخيالات المحدودة والذاكرات القصيرة لعبة بيد من لهم السلطة اليوم. فقد أصبح التاريخ الهويجي رسمي وأصبحت التقدمية المرضية جزء من عقول المفكرين والمعلمين اللذين يرغبون بشدة في تعزيز أوهام اليوم[٢].

وهنا يمكن أن نعرض رأي تشابه كثيرًا مع رأي "أوهير" ، وهو رأي د.وهبة طلعت أبو العلا، في كتاب بعنوان "الوجود المقلوب" يوضح كيف أننا لعبة بيد من بيدهم السلطة اليوم فيقول:

لم يعد في الإمكان حدوث أي شيء- باستثناء الظواهر الطبيعية التي لا دخل للإنسان فيها- إلا بمعرفة حراس العالم (ويقصد بهم أمريكا) وتدبيرهم المسبق سلفاً. لقد سجنوا كل شيء، سجنوا حتى التاريخ نفسه كف عن حركته الدائرية و أصبح يسير إلى الأمام في تقدم مضطرد لا يعرف التوقف. فالحركة الدائرية للزمن أصبحت مقصورة على الكل باستثناء أمريكا التي لم تعد تعرف سوى الحركة المستقيمة المضطردة دومًا من تقدم إلى تقدم، والتي لا ولن تتوقف أبداً. فهذه هي النتيجة الحتمية المترتبة على التقدم التكنولوجي الذي تحقق، ويتحقق، وسيظل يتحقق لصالحها إلى الأبد[٣].

كل ما نري يمثل أين نحن الآن، ونعمم من ذلك للماضي والمستقبل كما لو كان كل التاريخ عبارة عن اندفاع لا يقاوم اتجاه هدف محدد حيث نكون الآن ولا يتخلله أي عقبات. و في أي عصر، سيكون من الصعب رؤية المستقبل بهذه الطريقة ولكنه أصبح راسخًا على مدار المائتي عام السابقين، بالنسبة لجزء من صورة المدينة ما هو إلا: قوة جذب متزايدة بصورة ثابتة للتقدم السياسي والعلمي الموجة التي نحن أعلاه الآن[٤].

إلى حد ما، قد اعتاد الناس على هذه الفكرة، وقد تحركوا لتأكيدها، وقد استخدموها

---

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.100

(2).Ibid, p.101

(٣)وهبة طلعت أبو العلا: الوجود المقلوب (رؤية فلسفية معاصرة)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٧، ص ص ١٩٢، ١٩١ .

(4) O'Hear, Anthony, After Progress, p.102

لترويض أو إخضاع كل من يقف بطريقهم- الذين اتصفوا بالخوف والسلبية وكانوا ملائمين للتشاور والتطوير[1].

في عام (١٩٣٠-١٩٤٠م) عندما تطورت الرياضيات والتكنولوجيا، لم يتنبأ أحد كيف سيغير الكمبيوتر الحياة اليومية وكيف ستصل تكنولوجيا لمعلومات إلى كل جزء بالمجتمع والعمل. حتى الآن، هل نفهم ذلك؟ هل نعرف حقًا تأثير الكمبيوتر وتكنولوجيا المعلومات في الوقت الحالي، إذا تجاوزنا عن صورتهم بالمستقبل؟ كل هذا الشك في التطور التكنولوجي واتجاهه بعيد إلى حد ما عن الرأي الواضح والمتكرر بأن التطور التكنولوجي له نتائج مقصودة وغير مقصودة. كل تطور تكنولوجي يحل مشكلة ما، وإن لم يحدث ذلك فلن يكون تطور، ولكنه أيضًا يبرز مشاكل غير متوقعة من صنعه وقد تكون أصعب في حلها من المشكلة التي قدم لها حل. وأوضح ثلاثة أمثلة هم القوة النووية، السيارة المزودة بمحرك والمبيدات الحشرية[2].

ويبدو أنه لم يكن "أو'هير" وحده هو من شك في التطور التكنولوجي، ولكن هناك من وافقه الرأي وشاطره الفكر، فالكاتب "جلال أمين" في كتابه "العولمة" قد تناول أيضًا فكرة التطور التكنولوجي تأثيره على الإنسان، وهل حققت له فعلًا الرفاهية والتقدم المنشود؟ أم عادت على الإنسان بالأضرار؟ وهنا يقول "جلال أمين":

ليس هناك ما يضمن للإنسان أن يتجنب ابتداع وسائل للإنتاج أو الاستهلاك تتجاوز قدرته البيولوجية أو النفسية على التحمل، فإذا به يذهب في تطوير التكنولوجيا إلى حدود قد تتعارض تعارضًا جسيمًا مع الهدف الذي كان يبتغيه ابتداءً، وهو تخفيف أعباء الحياة وزيادة قدرته على الاستمتاع بها بل وحتى المحافظة على بقائه. ليس هناك مثلًا ما يحمي الإنسان، وهو في سبيل السعي إلى إطالة وقت فراغه، من أن يبتدع من طرق الإنتاج أو الاستهلاك ما يقصر وقت الفراغ من أن يطيله، وليس هناك ما يحميه، وهو في سبيل السعي إلى تحقيق مزيد من الاطمئنان إلى مستقبله، إلى اختراع ما يجعله أكثر قلقًا و أقل اطمئناناً[3].

قد يكون التفسير هو حاجة الإنسان الدفينة إلى إثبات تفوقه على غيره، فإذا به يحاول أن يستأثر دون غيره بالأدوات المتاحة (سواء كانت سلاحًا أو أداة إنتاج أو حتى أداة من

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.102
(2) Ibid, p.104

(٣) جلال أمين: العولمة، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩، ص٥١.

أدوات الاستهلاك) لمجرد الاستمتاع بتفوقه على الغير عن طريق قهره له. وقد يكون تفسير هذه القدرة الكامنة في التكنولوجيا، خاصة في التكنولوجيا الحديثة، على أن تصبح أداة قهر، هو ما ينطوي عليه من زيادة درجة النمطية (Standardization)[1].

بعبارة أخرى، وكما يرى "أوهير" ، لا يدعم تاريخ العلم والتكنولوجيا الرأي المتقدم القائل بأن التطور التكنولوجي والعلمي يمثل مسار مستقيم وهادئ اتجاه مستقبل أفضل ومعرفة أكثر. لذلك لا ينبغي أن ترعبنا الادعاءات المتعلقة بحتمية و القدرة على التنبؤ بالتقدم العلمي بدون شك في الادعاءات المتشابهة الخاصة بحتمية اتجاهات محددة في الجوانب البشرية، الاجتماعية والسياسية على الأقل ينبغي علينا التسليم بأن التغيرات التي تحدث نتيجة للنزاعات التاريخية تؤدي إلى التقدم ليس إلى التأخر. ولقد كان هناك تراجع كبير على مدار المائتي عام الماضية نتيجة لما رآه الكثير على أنه تقدم[2].

ويمكن هنا أن نضيف قول "شتراوس" الذي يؤكد فيه على أن ثمة علاقة تربط بين التقدم وبين أزمة الحضارة الغربية: "إن أزمة الحضارة الغربية متزامنة مع أزمة التقدم بالمعنى الكامل والمؤكد للمصطلح فإذا كان التطور الفكري البشري تطورًا تدريجيًا إلا أن الفكر الحديث منذ القرن السابع عشر بمثل تقدمًا غير مشروط، ومتجاوزًا لفكر كل ماسبق . فثمة توزان أساس وضروري بين التقدم الفكري وبين التقدم الإجتماعي فكلاهما لا نهائي في تقدمه ولا بأس من حدوثهما في آن واحد، ولكن في مرحلة التقدم الأخيرة للبشرية أصبح قولنا السابق موضع شك. فقد جعل الإنسان من نفسه مثلًا سيدًا للطبيعة من خلال غزوها وتحكمه فيها. ولهذا أضحى العلم الحديث وسيلة لتحقيق ذلك الهدف، فالنجاحات الهائلة التي حققها العلم الجديد والتكنولوجيا التي قامت عليه يمكننا أن نستحثها في الزيادة الهائلة للطاقة البشرية وبهذا أصبح الإنسان الحديث عملاقًا قياسًا بإنسان الماضي. ولكن علينا أن نلاحظ أنه لا توجد أدنى زيادة مماثلة أو مقابلة في الحكمة والخير فالإنسان الحديث يكون عملاقًا ولا ندري إذا ما كان أفضل أو أسوأ من الإنسان البدائي. ومن ناحية أخري فإنه علينا القول إن هذا التطور للعلم الحديث يكون متوجًا بالرأي الذي مفاداه أن الإنسان ليس بقادر على التمييز (بطريقة المسئولية) ما بين الخير وما بين الشر. فالإنسان الحديث عملاق أعمى. لهذا فإن الشك في هذا التقدم أدى إلى أزمة الحضارة الغربية ككل، لأنه في غضون القرن التاسع عشر

(١) جلال أمين: العولمة، ص٥١.

(2) O'Hear, Anthony, After Progress, p.105

تم التعويض عن التمييز القديم بين الحسن والقبيح، وبين الخير وبين الشر بالتمييز بين التقدمية والرجعية. فلا يوجد تمييز بسيط، صلب وأبدي، بين الخير وبين الشر يمكن أن يعطي ضمانات لأولئك الذين أخذوا أثارهم فقط من خلال التمييز بين التقدمية والرجعية طالما أن هؤلاء الناس كانوا شاكين في التقدم"[١].

مما سبق يمكن القول إن التطور التكنولوجي و قدرته على تحقيق التقدم والاستقرار للجميع فكرة لم تحظي بإعجاب بعض فلاسفة ومفكري العصر، فالحتمية والنمطية والقهر يمكن أن يكونا هما مصير الإنسانية، إذا استسلمنا لهذا المسار.

إن قول "أوْهير" بأن التاريخ يسير في اتجاه محدد، مفهوم خاطئ، فلا يمكن تحديد ما سيحدث مستقبلًا، قولًا أثار إعجاب الباحثة، فليس من المفترض أن نظل راضيين وسلبين في وجه العالم، وليس من المفترض أن نسلم بأن الحركة الدائرية للتاريخ حقيقة حتمية يجب الاستسلام لها وأن التقدم التكنولوجي هو التقدم الحقيقي الذي يجب أن تدور الإنسانية كلها في فلكه، دونما مقاومة، مستسلمين لنمطية فرضها علينا اعتقادنا بأننا في طريقنا نحو التقدم، فكان هذا الاعتقاد هو أول السبل التي تقودنا إلى التراجع، والاستسلام للقهر، والحتمية.

٣- التـاريخ والتطـور:

لقد لبثت المعركة محتدمة بين من أيدوا نظرية النشوء ومن عارضوها. والكنيسة مطمئنة لنفوذها في الالم الأوربي حتى أقبل شهر يوليو من عام ١٨٥٨م حين قُرئت أمام جماعة لينيوس Linnean Society بلندن مقالتان وضع أولاهما تشارلز دارون CH. Darwin وكتب الثانية أ. ر. والاس Alfred Russel Wallace وبقراءة هاتين المقالتين نشأت نظرية النشوء (التطور) بالانتخاب الطبيعي، وانبثقت ثغرة في حصن اللاهوت[٢].

ككانت اللطمة التي أثارت رجال اللاهوت صدور كتاب دارون «تسلسل الإنسان-De scent of man" عام ١٨٧١م، ومع أن هذا الكتاب ترددًا لما قاله النقاد من قبل فإن أثره كان مروعًا فنهضت "مجلة جامعة دبلن" لمقاومة هذا التيار، وأحيت الاتهام االقديم بأن دارون يحاول إنزال الله عن عرشه! وتصدى طبيب فرنسي كاثوليكي ذائع الصيت هو" قسطنطين جيمس" للرد على دارون، فنشر كتابه في باريس " مذهب

(١) جميل أبو العباس زكير بكري: فلسفة السياسة عند ليو شتراوس، ص١٤١.

(٢) توفيق الطويل: قصة النزاع بين الدين والفلسفة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،٢٠١١، ص ٢٤٩.

دارون أو الإنسان القردي" عام ١٨٧٧م وفيه صب احتقاره على كتاب دارون ووصفه بأنه "قصة خيالية" وأضحوكة كبرى... إلى آخر هذه الأوصاف من غير أن يعرض لنقد الكتاب ودحض آرائه علميًا؛ ولكن رجال اللاهوت قد أسكرهم الرضا بهذا الكتاب؛ فصرح الكاردينال أسقف باريس للمؤلف بأن كتابه أضحى مقرأته الروحانية! وأشار عليه بإهداء نسخة إلى البابا بيوس التاسع، وطرب البابا لهذا الكتاب؛ لأن مؤلفه قد أستطاع في لباقة محمودة أن يدحض ضلال المذهب الجديد! والرأي عنده أن هذا المذهب يتنافى مع التاريخ وتقاليد كافة الشعوب والعلم الصحيح والحقائق المشاهدة، بل يتنافى مع شريعة العقل نفسها، فهو مذهب يقوم على غير أساس، ولو استقامت الأمور ما كان هناك ما يدعو إلى محاولة نقضه، ولكن الميل إلى الإلحاد والنزوع إلى المادية يجنح بأهله إلى الاستعانة بمثل هذه الآراء الخرافية، إن الكفر قد حمل أصحابه على رفض الإيمان بالله خالق الأشياء جميعًا وإعلان استقلال الإنسان بنفسه بحيث يكون سيد نفسه وكاهن نفسه وإله نفسه، ومضى هذا لغرور بأهله حتى أنزلهم منزلة السوائم التي تجردت عن العقل بل منزلة الجماد الميت! فأكد هذا الغرور على غير وعي منه القول اللاهوتي: أنى وجد الغرور وجدت الوقاحة! ولكن مثل هذه الأوهام ينبغي دحضها، وما دام أهلها يلقون بها في ثياب العلم الصحيح فليكن دحضها بالعلم الصحيح. وبارك البابا بعد هذا جهود المؤلف في عصر أحوج ما يكون إلى مثل هذه الجهود، ومنحه البركة المستمدة من الرسل وخلع عليه رتبة القديس سلفستر البابوية! وأشار أسقف باريس السالف الذكر على المؤلف أن يعنى في الطبعة التالية لكتابه ببيان العلاقة بين قصص سفر التكوين ومكتشفات العلم الحديث لإقناع الملحدين بالتطابق التام بينهم! واطلع هذا الكاردينال على تجارب الطبعة الثانية التي ظهرت عام ١٨٨٢م بعنوان "موسى وداروِن" إنسان سفر التكوين مقارنة بالإنسان القردي، أو التعليم الديني مقارنة بالتعليم الإلحادي، وأسكر النصر هذا الكاردينال فعانق المؤلف بإسم الدين والعلم معًا![1].

يتكلم "أو هير" في كتاب «ما وراء التطور Beyond Evolution" عن أن هناك عددا من الملامح البيولوجية التطورية لاحظها هؤلاء الذين يصنفون أنفسهم على أنهم علماء فلسفة معرفية تطورية وكموضحين للمعرفة والثقافة الإنسانية عامة هذه الملامح تقترح وجود تشابه بين المعرفة الإنسانية والعمليات التطورية في كلٍّ من الأهداف والتركيب، وهي:

(١) توفيق الطويل: قصة النزاع بين الدين والفلسفة، ٢٥٣.

١. تتميز الحياة عن الأشياء الجامدة في أن الكائن يجب أن يفعل شيء ما لكي يبقى في الوجود ولكي يتوالد هذا "الشيء" على المستوى البسيط يشمل تناول الطعام من بيئته.
٢. حل المشكلات التي تجلبها الطبيعة لكي يحافظ على نفسه في اتزان داخلي ومع علاقته بالبيئة.
٣. الكائنات الحية، من أجل استخلاص القوت من بيئتها، تميل إلى خلق نقص في حل مشكلاتها.
٤. تنتمي الكائنات الحية لبيئتها من خلال توقعاتها وميولها مسبقة التكوين.
٥. قد نرى تطور الأنواع في شكل تطوير للحلول طويلة الأجل للمشكلات قصيرة الأجل وتطوير الميول والرغبات الجيدة لتناسب وتغذي البيئة[١].
٦. ميكانزم التطور الارتقائي هي في التنوع الأعمى للانتخاب (مثلاً، الانتخاب البيئي) الاحتباسي.
٧. الحل الطويل الأجل للمشكلات طويلة المدى يؤدي إلى تطور الأدوات الحسية الإدراكية، وهذا يقلل عن المخاطر بالنسبة للحياة، البصيرة والحواس الأخرى وتؤدي إلى تنظيم عظيم للجهد المتحرك.
٨. الأدوات الحسية التي يراها علم الفلسفة المعرفة التطوري كناتج لطلب الطعام أكثر من كونها ناتج لطلب المعلومات أو المعرفة لأجل مصلحتها[٢].

من وجهة النظر البيولوجية والتطورية للنقاط الثمانية السابق ذكرها، استطاع "أو'هير" أن يستخلص أن الأعضاء الإدراكية والتصورية تتطور لكي تمكن المخلوقات من التوافق بشكل ناجح مع المشكلات التي تواجههم مع بيئتهم، وذلك ليستطيع الأفضل أن يبقى، وبالتالي، أن يتوالد أكثر. قد يؤدي هذا إلى استنتاج فلسفي تفاؤلي لائق، عن الأعضاء التي تمثل العالم بشكل صحيح[٣].

يوضح "أو'هير" في كتاب "ما بعد التقدم After Progress" أن نظرية النمو والتطور لم تدعم أي رأي تفاؤلي للتغير التاريخي. ويكمل بأنه على الرغم من اختلاف التاريخ البشري عن التاريخ التطوري في العالم الطبيعي في احتوائه على عناصر من التخطيط المدروس، إلا أن هناك تماثل في جوانب هامة. على وجه الخصوص، هناك

(1) O'Hear, Anthony, Beyond Evolution , p. 51
(2) Ibid,p.52
(3) Ibid,p.52

رأي يشير إلى أنه في الطبيعة والشئون البشرية حل أي مشكلة ينتج عنه مشكلة جديدة. وبصورة طبيعية، الأنواع المختلفة الأكثر نجاحًا في التغذية والإنجاب من المعدل الطبيعي، خلال وقت قصير ستتزاوج تلك الأنواع المختلفة لتحسين النسل وسيمثل هذا المعدل الطبيعي.

ولكن هذا النجاح قد ينتج عنه مشاكل جديدة، فقد تبتعد الأفراد عن الطعام المتاح. وخلال وقت قصير سيكون هناك أعداد غفيرة لابد من إيجاد حلول بيولوجية جديدة لهذه المشكلة الجديدة والتي تسبب فيها حل المشاكل القديمة بنجاح[١].

حقاً، من الممكن أن يستمر المرء بصورة أكبر في نظرية التطور. وعلى نحو صارم، عملية الاختلاف العشوائي والبقاء الاختياري التي تكتشف الارتقاء التطوري لن تقبل التقدم بأي صورة. ما تقوم به هو خلق اختلافات للحيوان والنبات ويكون أداء الأنواع الجديدة أفضل ممن سبقها ومن منافسيها في مواقف محددة يتواجدون بها. ولكن إن تغير الموقف، قد يتحول التنوع المفيد إلى تنوع غير مفيد. على سبيل المثال، تساعد الرقبة الطويلة للزرافة في تناول غذائها من الأشجار المرتفعة، لكن إن لم تتواجد هذه الأشجار العالية لن تفيد الزرافة رقبتها الطويلة ويكون ذلك على حساب غذاء الزرافة[٢] مع ذلك، لم ينخدع "دارون" نفسه في عيوب العالم الطبيعي في ظل نظام الانتخاب الطبيعي ففي كتاب "أصل الأنواع" كتب[٣]:

لا يجب أن نندهش عندما تسبب لسعة النحلة موت النحلة نفسها، أو عند إنتاج عدد كبير من ذكور النحل لوظيفة معينة فقط، ثم تقتلهم أخواتهم العذارى، وعندما تضيع حبوب اللقاح عن طريق حرق الأشجار والكراهية الفطرية لدى النحلة، الملكة اتجاه بناتها المخصبين، أو من أنثى النمس وهي تتغذى على الديدان الحية، ومن مثل هذه الحالات. تتعجب حقًا من أنه لم نلاحظ الاحتياج للكمال في هذه الحالات، بالنسبة لنظرية الانتخاب الطبيعي[٤].

تشير وجهة النظر إلى أن في الانتخاب الطبيعي، النجاح والفشل متصلين بمواقف محددة ومنافسين فعليين. وفقًا لهذه الصلة المزدوجة، فقد تنجح وتتطور مخلوقات غير

---

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.106
(2) Ibid, p.106
(3) Ibid, p.107
(4) O'Hear, Anthony, Beyond Evolution, p.75

ملائمة بشكل واضح، ولكن تغيير إما أن يكون في موقف أو منافسة وما يبدو تكيف ممتاز قد يكون غير ملائم على نحو خطير[١].

ويقول "مايكل ستينمارك" عن "أوهير" في مراجعة لكتاب "ما وراء التطور" : إن القضية الرئيسية التي تناولها "أوهير" في موضوع التطور هي أنه بالرغم من كوننا نحن وقدراتنا ربما نكون قد تطورنا بطرق دارونية، إلا أن التطور الفجائي لنا ولقدراتنا يثبت أننا تطورنا بطرق لا دارونية على الإطلاق، فما أن برزت المعرفة الإنسانية والمذهب الأخلاقي، وعلم الجمال، حتى أصبح تحليلها حسب النظرية التقدمية أمرًا لا طائل من وراءه. من ثم، ذهب "أوهير" إلى أنه لا يمكن الأخذ بالمذهب الداروني كمفسر للسلوك الإنساني. بل يحتاج إلى أن يستكمل بأنواع أخرى من التفسيرات. كما لا يمكن اختزال مباحث المعرفة، والأخلاق، وعلم الجمال إلى مبحث المعرفة وحده[٢].

ويقول "نيكولاس آجار" في مراجعة أخرى لنفس الكتاب " ما وراء التطور": يعتقد "أوهير" أن نظريات تطور الأخلاقيات والمعرفة قد أخفقت إخفاقًا واضحًا في تفسير الوعي الذاتي كضرورة للمعرفة واجتياز الحكم الأخلاقي. وتتحول فكرته عن الوعي الذاتي لتكون منمقة إلى حد ما[٣].

ويكمل "ستينمارك" إن الحجة الرئيسية المدعمة للقضية تشتمل على مقولة كيف للذات الواعية المتحكمة التي تزودنا بالأهداف والمشاريع أن تكون محيرة لنا أو حتى لا يمكن طرحها عن طريق تعبيرات بيولوجية. والفكر بشكل تقريبي هي أنه مع التقدم الذي يحدث للبشرية جمعاء، وصل التاريخ الطبيعي إلى مرحلة من التطور تطورت معها المخلوقات بصورة معينة والذي به أمكن التساؤل عن مكانتهم في العالم بطريقة ليس لها نظير في الطبيعة بأكملها. وعينا الذاتي وحده هو ما يجعل هذا ممكنا – ففي تفاعلي مع الناس والطبيعة، أصبح مدركًا أني أعلم ومسئول، و أبدأ كذلك في التيقن أكثر من أن معتقداتي ومهاراتي المكتسبة هي من صنعي. من أجل هذا الغرض ندرك أنه ليس

---

(1) O'Hear, Anthony, After Progress, p.107

(2) Mikael Stenmark, (Anthony O›Hear Beyond Evolution human nature and the limits of evolutionary explanation») ,Religious studies, Vol. 35, No.4, Cambridge University .press,1999,p.501.

(3) Nicholas Agar,(Anthony O›Hear: Beyond Evolution human nature and the limits of evolutionary .explanation),Mind new series, Vol. 110, No.438, Oxford University Press , 2001,p.535

من الضروري لمعتقداتنا ومهاراتنا المكتسبة أن تتناغم من هؤلاء الآخرين أو مع العالم، فطريقنا الذي نسلكه هو الطريق الوحيد المتاح. من هنا يبدأ وعينا الذاتي منهجًا يقودنا في محاولة منه لتعديل وتطوير معتقداتنا (نظرية المعرفة) ويسألنا أي سبل السلوك الإنساني يتجه نحو الأفضل (الأخلاق)[١].

كذلك لا تهدف – عند نيكولاس آجار – بعض الأهداف الجدلية في فصل "أو›هير" التي تتحدث عن الأخلاق والسياسة إلى شرح أي سمة أو أخلاق معيارية أو تحولية. وسوف يشير الفلاسفة إلى أن أتباع "داوكين" وبعض المؤيدين الآخرين لنظرية التطور والارتقاء كانوا حريصين في نجاحهم البلاغي وادعاء أتباع "داوكين" الغير معروف بأن "إننا محركات آلية مبرمجة لحفظ جزئيات تسمى الجينات" يقدم اقتراحًا لأبسط جزء في الحتمية الجينية ويدرك معظم النقاد المؤيدين أن معظم مناقشات "داوكين" تدعم نظرية الانقسام الجيني – وهي التفسير بلغة الانتخاب الطبيعي هو تفسير بلغة الجينات هذه النظرية قابلة للانفصال عن فكرة الحتمية الجينية القائلة بأن كل شيء فردي محكوم بالجينات[٢].

ويكمل "ميشيل براداي": إن هدف "أنطوني أو›هير" هو الادعاء بأن المذهب الداروني يشترط التفسير الكامل لما يعنيه أن تكون إنسان. إن جوهر حجته هو أن هناك أبعاد معيارية رئيسية لكي تكون إنسان وهو الهروب من شرك التفسير الداروني أو غيرها من التفسيرات الطبيعية. ليس هناك مجال للقول بأن الحسابات الدارونية التطورية تكون ذات صلة لفهم ما يعنيه أن تكون إنسان. إن النقطة الأعمق هي أن تلك الحسابات لا تشترط التفسير "الكامل". إن الجنس البشري المتطور ليس هو موضوع البحث. فنحن مندرجون من أجناس طبيعية. على سبيل المثال، نحن أجسام مادية كأي حيوانات أخري لا أكثر ولا أقل. ولكننا، أكثر من ذلك[٣].

---

(1) Mikael Stenmark, (Anthony O›Hear Beyond Evolution human nature and the limits of .evolutionary explanation") ,p.501
(2) Nicholas Agar,(Anthony O›Hear: Beyond Evolution human nature and the limits of evolutionary .explanation),p.536
(3) Michael Bradie, (Anthony O'Hear: Beyond Evolution" human nature and the limits of evolutionary explanation"),philosophy

على أي حال. فنحن نملك عقول. وإننا لسنا واعين وحسب بل واعين بذواتنا. بينما قدراتنا على الوعي والوعي بالذات متطورة بما لا يدع مجال الشك، تلك القدرات تسمح لنا باستقبال ومتابعة الأهداف والموضوعات الملغزة أو حتى متعذرة التفسير على المفردات البيولوجية" وكأجناس واعية بذاتها، فإننا نستطيع، ونحدث انعكاس على، ونقيم تلك المعتقدات. ونحن نستطيع أن نفكر فيهم، وفي القيام بذلك، يأتي تصنيف المعتقدات "الجيدة" من المعتقدات "السيئة"، والمعتقدات السليمة من الخاطئة منها. فنحن يمكن أن نطور موضوعات مثل متابعة " ما هو حقيقي لأنه حقيقي، أكثر من كونه يخدم اهتماماتنا. " في متابعة مثل هذا الموضوع، "أو'هير" يحاول أن يبرهن، أننا يجب أن نتجاوز التقييدات الخاصة بتفسيرات الطبيعيين لسلوكنا[1].

ويقول "أو'هير" في كتاب "ما بعد التقدم" أن الفروق الواضحة بين التاريخ والتطور البيولوجي، أن تاريخنا يبدو أقرب كثيرًا للتطور منه للتفسير التقدمي. فمسار التاريخ يكون أقل توحداً، غير متوقع كثيرًا وقائد للصدفة أكثر مما يكون علية التقدميين. لا يعد التاريخ مسيرة ثابتة للأمام، لكنه أكثر من مجرد خطوة للأمام وخطوة مجهولة المسار. اتجاه التاريخ غير سابق التحديد، وليس ما يحدث بالضرورة أفضل مما حدث. فهو ليس بالضرورة علامة على الغباء الأخلاقي أو العقلي ليكون خارج نطاق التواصل مرة واحدة[2].

تعقيب:

بعد عرض الفصل يمكن القول بأن محاولة فهم التاريخ لم تقتصر فقط على "أو'هير" ، ولكنها شغلت بال بعض مفكرين هذا العصر أيضاً؛ كانت بعض الرؤى تشاؤمية، وبعضها يحمل بصيصًا ولو ضئيل من الأمل. أما عند "أو'هير" ، فكما هو الحال، يحلل عارضًا السلبيات، والإيجابيات– إن وجدت–، وما يمكن أن نفعله من إصلاحات– من وجهة نظره– لنتفادى السلبيات ونمضي في طريق التقدم.

---

and phenomenological research, Vol. 62, No.1, international .phenomenological society,2001,p.235

(1) Michael Bradie, (Anthony O›Hear: Beyond Evolution» human nature and the limits of .evolutionary explanation"),, p .235

(2) O'Hear, Anthony, After Progress, p.108